سلسلة: والله أعلم

في الحجاب

سلسلة: والله أعلم
الدكتورة ألفة يوسف

في الحجاب

تونس 2012
(جميع الحقوق محفوظة للكاتبة)

هذه السلسلة

منطلق هذه السلسلة من الكتيبات أمران، أولهما ما لاحظته من عزوف كبير عن القراءة لدى الشباب خصوصا. ولما كنت ممن لا يرتاحون إلى إلقاء اللوم على الآخر دوما فقد أردتُ مراجعة دور

الكاتب في عزوف القارئ. ونوبتُ أن أتهم في هذا العزوف طولَ ما يُكتب في عصر السّرعَة والاقتصارَ على التمشّي الأكاديمي الدقيق في عصر المقال الصحفيّ والتّداينة القصيرة. ولذلك لن تجنح هذه السلسلة إلى التّطويل وستضع بين يديك أيّها القارئ كتيبات أو مقالات مطوّلة. أمّا الأمر الثّاني الذي دفعني إلى إنشاء هذه السلسلة فهو جنوح الكثيرين اليوم إلى وجهة النّظر الواحدة الجامدة وفقدان مفهوم أساسيّ هو مفهوم اللّطف وتنوّع وجهات النّظر للموضوع الواحد. فالغالب أن نجد قراءة أحديّة تجعل رأيا هو الصّائب مطلقا وتجعل رأيا آخر خاطئا مطلقا وتجعل من ليس معي ضديّ وتستبدل بالنّظر والتدبّر قوالب جامدة ونهائيّة.

وقد اخترنا أن نقيم هذه السلسلة في شكل حوار خلافيّ بين صديقين في مسائل لها بتفسير النّصوص الدّينيّة وتأويلها صلة وشيجة. واعتمدنا في اختيار المواضيع ما شاع النّقاش حوله وما طرحه عليّ شخصياّ كثير من الأصدقاء والطّلبة من مسائل.

وقد عمدنا إلى أن نضرب صفحا عن تفاصيل الشواهد المطوّلة وخففنا الإحالات قدر الإمكان، وذلك خشية من إثقال نصّ تبسيطيّ يتّجه أساسا إلى غير المختصّين.

إنّنا بهذه السلسلة البسيطة لا نسعى إلى تقديم جواب نهائيّ لأنّنا نؤمن أنّ لكلّ شخص جوابه وأنّ لكلّ مقام مقاله. ونحن بذلك نخالف الكتبيبات التي تدّعي تقديم حقيقة والتي يتموضع كاتبها موضع العالم مطلقا وقارئها موضع المتقبّل المطلق.

فلتتظر أيّها القارئ في هذه الحوارات، ولتكن رؤيتك وتأويلك واختيارك مسؤوليتك الفرديّة، فنذكّر أنّه لن يتحمّلها معك أحد...

تنبيه

لا تعبر أقوال الشخصيتين إلا عن آرائهما فحسب ولا تتحمل الكاتبة مسؤولية هذه الآراء. وأي شبه بين آراء الشخصيتين وآراء الكاتبة إنما هو من قبيل الصدفة.

من العدل أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه
بنفس ما يأتي به لنفسه (ابن رشد)

اضرب بعض الرأى ببعض يتولد منه الصواب
(عليّ بن أبي طالب)

في الحجاب باذن الله

- وتدعين أنك مسلمة؟ وأنت لا تتمسكين بأبسط مظاهر الإسلام... أين حجابك يا أختاه؟
- أعتذر ولكني لا أفهم ما تعنيه بكلمة "حجابك"؟
- حجابك هو اللباس الشرعي الذي أمر به الله تعالى كل امرأة مسلمة. هو أن لا يظهر من جسدك إلا الوجه والكفان في أحسن الأحوال، وإذا كان وجهك جميلا مثيرا للفتنة فعليك بتغطيته أيضا مثلما يقول بعض علماء المسلمين، بل إن الإمام المودودي يوجب النقاب ولا يجيز كشف الوجه حتى للعمّ والخال.

- انتظر لحظة، قبل أن نصل إلى الإمام المودودي وإلى سائر الأئمة الأجلاء، فلنبداً بالقرآن، وإذا كان نصننا الديني واحداً فإننا لا نجد فيه كلمة الحجاب إلا مرتين، مرة إذ يقول الله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ..." (الشورى 51/42) ومرة ثانية إذ يقول عز وجل: "...وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ..." (الأحزاب 53/33). فأما السياق الأول فلا علاقة له على حد علمي باللباس، وأما السياق الثاني فأمر خاص بزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ويمكن أن تعود إلى موضع الآية لتتأكد من ذلك¹.
- وأليس نساء الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين؟ ألسن خيرة النساء وأليس من الواجب على نساءنا اتباع سيرتهن؟
- لا شك يا صديقي في أنّ نساء الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين. ولكنني لا أجد أمراً باتباع سيرة نساء

الرّسول ضرورة، وإذا رأيت أنت أو سواك
عكس ذلك فإنّ الأمر يحرّجني شخصياً.

- ولم ذلك؟

- بكلّ بساطة لأن الله تعالى نفسه يقرّ بأنّ
نساء الرّسول مختلفات عن سائر نساء
الخلق، ألم يقل عزّ وجلّ: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ
النِّسَاءِ..." (الأحزاب 32/33)، هذا على
مستوى النّقل. أمّا عقلاً فلا أعتقد أن الله
تعالى يحرم على سائر المؤمنات الرّواج
بعد وفاة أزواجهنّ، في حين أنّ هذا التّحريم
يسري على نساء الرّسول²، كما لا أعتقد أن
الله تعالى يأمر كلّ النّساء بأن يقرن في
بيوتهنّ في حين أنّ هذا الأمر يسري على
نساء الرّسول. ولا تنس أنّه رغم ذلك فقد
خرجت عائشة عليها السّلام من بيتها
ودخلت في صراع سياسيّ حربيّ مع عليّ
بن أبي طالب و...

- لا أسمح لك بأن تتلبي السيدة عائشة
رضي الله عنها فهي من أمّهات المؤمنين.

- أنا لا أثلب أحدا ولكني عرضتُ إلى أحداث تاريخية لا أظن أنك تنكرها، ولكن دعنا من هذا، فقد ابتعدنا عن موضوعنا الأصلي.
- حتى أعود بك إلى موضوعنا أدعوك إلى أن لا تقطعي آيات القرآن الكريم عن سياقها. فالآية كاملة تقول: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا" (الأحزاب 32/33). فتميز نساء النبي صلى الله عليه وسلم عن سائر النساء مشروط بتقواهن. وقد كن فعلا تقيات وهذا تمييز في الفضيلة فما الذي يمنع نساء المسلمين من السعي إلى الاقتداء بهن؟ وما الذي يمنع نساء المسلمين من أن يحتشمن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى؟³
- بغض الطرف عن أنه لا وجود لقول فصل في معنى تبرج الجاهلية الأولى فأني أتساءل: هل أفهم من كلامك أنك تطلب من

النساء أن يقرن في بيوتهن وأن لا يراهن
أحد إلا من وراء ساتر؟

- لو كان ذلك لنقص كثير من الفساد في
المجتمع ولانتشرت قيم الفضيلة وعض
البصر وحفظ الفرج.

- هل تعرف منطلق حجب نساء الرسول؟
انظر في أسباب نزول الآية المذكورة من
سورة الأحزاب؟ إنها ثلاث روايات مختلفة
لها بسلوك القوم زمنها أو بغيره الرسول
عليه الصلاة والسلام صلة وثيقة⁴. والأکید
أن هذا الحجب ليس أمرا عامًا لكل النساء،
وليس منطلقه تصوّرًا قيميًا شاملًا.

- إذا كان الله تعالى أراد الحجب الكامل لنساء
الرسول وهنّ على ما هنّ عليه من فضيلة
وحسن خلق، فما بالك بسائر النساء؟ إن
هذا الحجب ممّا يرضي أيّ مسلم غيور
على نسائه لا ديوث. ولكن لن أحدثك عن
الحلول المثلى، وإنما عن الحد الأدنى. هل
ستتكرين أن الله تعالى أمر المؤمنات
بإدناء الجلابيب: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا
رَحِيمًا" (الأحزاب 59/33)؟

- هل قرأت الآية جيّدا؟ إنّها آية تفسّر سبب الأمر بإدناء الجلابيب بالخوف من الأذى. وهذا ما يثبته المفسّرون إذ يقرّون أنّ ذلك الأمر خاصّ بالنساء الحرائر وأنّ سببه ما كانت تتعرّض له الجواري والإماء من أذى وتحرش إذا خرجن وعُرفن⁵. وإذا استثنينا إمكان أن تنادي أنت وسواك بعودة الرّق (وهو ما لا أستغربه) فإنّ التّمييز بين الإماء والحرائر لم يعد له أيّ معنى اليوم بما أنّ الرّق ألغي في كلّ البلدان.

- نعم ألغي الرّق بمعناه الواضح بيعا وشراء، ونشأ محلّه رقّ من ضرب آخر. ألا ترى أنّ استغلال الإشهار لجسد المرأة وتحويله إلى مجرد بضاعة للإثراء السّريع هو نوع من أنواع الرّق؟ أليس إدناء الجلابيب ممّا يكفل للمرأة كرامتها ويجعلها حرّة مصونة بالمعنى الفعليّ للحرية،

وليس جسدًا تنهشه عيون الذناب
البشرية؟

- أفهم من كلامك أنّ إنداء المرأة الحرّة
للجلباب حافظ لكرامتها؟

- نعم سيدي، وبذلك يتحقّق معنى السببية
الوارد في الآية انطلاقاً من قوله تعالى:
"أدنى أن يُعرفن فلا يؤذنين". إنّ المرأة
المتحجّبة لا تتعرّض للأذى.

- أيّ تصوّر للإسلام لديك؟ في نقاشنا حول
عقاب القاتل تجد أنّ قتل المرأة بالمرأة
والرّجل بالرّجل والعبد بالعبد ليس من باب
التّمييز⁶. والآن تريدني أن أقبل أنّ الله
تعالى العدل يرضى أن تؤذى الإمام وأن
يُتحرّش بهنّ لمجرّد أنّهنّ إماء فيما يُرفض
أن تتعرّض الحرائر لذلك التّحرّش وينبغي
حمايتهنّ منه. تريدني أن أقرأ في أمّهات
الكتب أنّ عمر بن الخطّاب الفاروق
المعروف بعدله قد ضرب أمة بالدرة
(بالسوط) لأنّها أدنت الجلابيب أي لبست
لباس الحرائر، وتريدني أن أقرأ أنّه كان
رضي الله عنه يضرب الإمام بسبب

تغطيتهن رؤوسهن ويقول: "لا تشبهن بالحرائر"⁷، وتريدني أن أعتبر هذا عدلا ومساواة بين المسلمات.

- أنت لا تريدين أن تفهمي المسائل كما هي. الأمة- أيام كان الرّق موجودا- إنما هي بضاعة. ومن حق من يشتري البضاعة أن يطلع عليها ليعرف عيوبها ومحاسنها، ومنها العيوب والمحاسن الجسدية. وقد اختلف في عورة الأمة على أقوال أقلها من يعتبرها - شأن عورة الرجل- من السرة إلى الركبة. فلا تنسى أنه كان للرجال الحق في التسري بالإماء أي في إقامة علاقات جنسية معهن هي حلال. وقد قنن الفقهاء الأجلاء هذه العلاقات وقتنوا حقوق الأبناء والأمهات فيها إلخ. ونحن اليوم لا نتحدث إلا عن الحرائر. فهل تنكرين أن الآية تأمر نساء المؤمنين بإدناء الجلابيب أمرا واضحا صريحا؟
- لم أنكر ذلك وقد بينت لك سبب نزول الآية وبينت لك الدور الاجتماعي التمييزي لإدناء الجلابيب. والفرق بيننا أنك تعتبر أن

الأمر بهذا الإدناء ما زال صالحا في حين
أنّي أعتبر أنّه زال بزوال الرّقّ شأن زوال
العمل بالتسرّي. ولكتّك تنسى أو تتناسى أنّ
الآية -ورغم زوال الرّقّ- تظلّ تاريخيّة
سياقيّة من حيث نوع اللباس المذكور فيها.
وهذا ما يثبته الطاهر ابن عاشور إذ ذهب
إلى أنّ إدناء الجلابيب هو شرعٌ روعيت
فيه عادة العرب، والأقوام الذين لا يتّخذون
الجلابيب لا ينالهم من هذا التشريع
نصيب⁸.

- هل تتصوّرين الشّيخ الطاهر ابن عاشور
يدعو إلى أن تخرج النّساء سافرات؟
المعنيّ بكلامه حسب رأيي أنّه إذا كان
القرآن اعتمد الشّائع من اللباس لدى
العرب آنذاك فيمكن أن تعتمد النّساء اليوم
أصنافا أخرى منه. ولكن مهما يكن نوع
اللباس أو تصميمه فاتّه يجب أن يكون
ساترا، ذلك أنّ الغرض من إدناء الجلابيب
وفق هذه الآية هو السّتر لحماية النّساء
من الأذى. وهذا السلوك يؤسم بسدّ الدّرائع
أي قطع سبيل المعصية.

- غريب أمرك. لنحمي النساء من الأذى لا يجب أن نعاقب المتحرّش أو أن نرقى بأخلاقه وندعم وازعه الداخلي، وإنما يجب أن نلفّ المرأة في قماش من رأسها إلى أخمص قدميها.
- وما المشكل في ذلك؟ أليس من طبع الإنسان أن يصون الشّيء الثّمين ويخفيه عن الأعين؟
- والمرأة عندك شيء؟
- لا تقفي على الألفاظ وأنت تدركين المعاني. إنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: "الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصّالحة"⁹. فهل يعني كلامه أنّ المرأة متاع؟ ما أقصده بكلامي هو أنّ المرأة فتنة ولذلك يجب أن تُصان وتُحفظ عن العيون التي تنهشها وتريد بها سوءا.
- إذا فهمتُ كلامك فالرّجل ناهش ومؤذ بالقوّة ولا رادّ لذلك الأذى إلاّ بتغطية جسد المرأة وإبعاده عنه. أيّ صورة تقدّمها عن الرّجل يا سيّدي؟ هل هو حيوان غريزيّ لا عقل له ولا قيّم تحكّمه؟ والأغرب أنّ هذا الحيوان

الغريزي الذي لا يتحكّم في شهواته يُقدّم
بقدره قادر في صورة كامل العقل والدين،
القوام الذي يُكتفى بشهادته واحدا لرجحان
عقله وكمال دينه. أليس هذا تناقضا؟

- لقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما
تركتُ بعدي فتنة أضّر على الرجال من
النساء". وقال: "ما رأيت من ناقصات
عقل ودين أسلب للرجل الحليم
منكن"¹⁰. ولن أكذب رسول المسلمين
وسيد الخلق لأصدقك أنت.

- يا سيدي ما تستشهد به من أحاديث يؤكّد ما
كنت أقرّه من تناقض بين تكليف شخص
بمسؤولية العائلة على اعتباره قواما وفق
القراءات الشائعة للقوامة وبين كون إرادته
هشة إلى درجة فقدانه اتزانته أمام شعر
امرأة. ولكن لأفترض جدلا تصوّرك
المتناقض هذا. ولتسمح لي بالتساؤل: إذا
كان الغرض من تغطية النساء حماية
الرجال/الذئاب من الفتنة، فكيف تفسّر أنّه
في كثير من البلدان التي ترتدي فيها النساء
الحجاب نجد مع ذلك عددا مهولا من

- حالات التحرش الجنسي فضلا عن
الاعتصاب؟ بل إن هذا العدد قد يفوق أحيانا
ما يوجد في بلدان لا "تتجيب" نساؤها.
- في كل الأزمان وفي كل البلدان يوجد غير
المتخلفين وضعاف النفوس. وحدود
الإسلام تضرب بقوة على أيدي هؤلاء.
- ها أنت تقر أن المشكل في الذات المشتبهة
بصفتها هي غير المتخلقة أو الضعيفة. فهلا
تفطنت إلى أن الرغبة يا سيدي مهما يكن
نوعها ليست البتة كامنة في موضوع
الرغبة بل في الذات الراغبة؟ فإذا وجدت
شيئا ما جميلا فإن الجمال كامن في
تصوري أنا للشيء لا في الشيء ذاته.
- أفهم من كلامك أنك تتصورين أن الجائع
مثلا لا يشتهي الطعام لما في الطعام من
سمات تغريه؟
- الطعام شأنه شأن كل المواضيع في الدنيا لا
وجود مجردا له. ولا يوجد إلا من خلال من
يدركه ويتصوره، والدليل أن بعض الناس
لا يأكلون ضربا من الأطعمة.
- الجائع يا سيدي يشتهي كل الطعام.

- لقد لاحظتُ تشبيهك المرأة بالطعام. وسأضرب صفحا عمّا في هذا التشبيه من تشييء وإهانة للمرأة. وسأسايرك جدلا كعادتي في تشبيهك. أنت تعرف أنّ كلاً من الطعام والجنس لازم للإنسان، ولكنك تعرف أنّ الإنسان إذا لم يأكل يموت أمّا إذا ما لم يمارس الجنس فإنّ لذلك تأثيرات نفسية أو جسدية عديدة ولكنها لا تؤدي ضرورة إلى الموت. فهلاً طالبت سيدي بتغطية محلات الأكل ومحلات بيع الخضر والعلال واللحوم ممّا قد يشتهي الجائع ولا يقدر على اقتنائه؟

- وجود الطعام معروضا لازم لتمكين الناس من الاختيار. ثمّ إنه من غير الأخلاقي أن يأكل المرء في الشارع على مرأى من الناظرين.

- بين غير الأخلاقي وبين الحرام والفرض الدينيين من المنظور الفقهي فرقٌ يا سيدي. فهلاً طالبت أيضا ب"حجب" المصوغ والسيارات الجميلة والملابس الباهظة الثمن

- وغيرها خوفا من اشتهاؤ الناس لها
والحصول عليها عنوة؟
- أنت من تشيئين المرأة الآن؟
 - أنا فحسب أحاول أن أفكر معتمدة نفس
آليات تفكيرك. هل تعرف أنك تطلب من
المرأة أن تحجب جسدها لكي تشعر أنت
بالراحة. فماذا لو طلبت من نفسك غض
البصر، هذا إذا أزعجك إلى هذه الدرجة
رؤية امرأة ترتدي لباسا عاديا شائعا. وماذا
تفعل عندما تسافر إلى بلاد "الكفار" وترى
نساءهن بلا حجاب؟
 - ليس كل الرجال سواسية فهناك من
يستطيع غض البصر وهناك من لا يقدر
على ذلك، وعلى أخته المسلمة أن تعينه
على ذلك.
 - وأخته المسلمة من يعينها على غض
البصر؟
 - ألا تعرفين أن هناك فرقا بين شهوة الرجل
وشهوة المرأة؟
 - نعم أعرف ما ورد في المخيال الشعبي
العربي من حكايا وأخبار تفيد أن شهوة

المرأة أكبر من شهوة الرّجل عشر مرّات. ولكن دعنا من استيهامات المخيال الشعبيّ التي أزعجت ابن قيم الجوزيّة باعتبارها تخذش في رأيه كرامة الرّجال، ودعنا من تصوّرات مجتمع الفقهاء الذّكوريّ تحاول السيطرة على الشّهوة الأنثويّة¹¹. ما أتصوّره شخصيًّا هو أنّ الله تعالى أودع الغريزة الجنسيّة للنّاس جميعهم، على أنّ تصوّري للغريزة الجنسيّة ليس تصوّرًا آليًا كذاك الذي تقترحه أنت. إنّ الشّهوة وآليّاتها أمر معقّد يختلف من شخص إلى آخر ومن سياق إلى آخر. وليس إخفاء كلّ مواضيع رغبة الإنسان بمانع شخصًا من الرّغبة. نحن بشرٌ يا سيّدي، بشرٌ لا حيوانات، والجنس وجه من وجه التّفافيّ لدى البشر، فالمفروض أن نرقى بأنفسنا وأن نتعامل مع غرائزنا بتهذيبها لا بكبتها ولا بالاعتداء على الآخرين لتحقيقها.

- عندما أتجاوز معك، أنسى دائما قدرتك العجيبة على إبعادنا عن الموضوع الأصليّ بإعمال عقلك في كل شيء وفلسفة كل

الأمور. وفي هذا كله تنسين أمرا بسيطا
جدا من المفروض أن يعرفه كل مسلم وهو
أنني لا أنشئ نظرية. ولكني فقط أطيع
أوامر الله تعالى الذي أمر المرأة بالحجاب
في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه.

- على حد علمي بيئت لك معنى كلمة
الحجاب وبيئت لك أن لا علاقة لها باللباس
والزّي. وأذكرك أنني مسلمة أي أنني أنا
أيضا أطيع أوامر الله تعالى. فهل تريدني أن
أتجاهل أن الله تعالى قد أمر بإدناء الجلابيب
في سياق تاريخي غاب من حيث نوع
اللباس ومن حيث التمييز بين الحرائر
والإماء؟ أم هل تريد السعي إلى "إحياء"
هذا السياق التاريخي بإحياء الرقّ لتحقيق
معنى إدناء جلابيب الحرائر دون الإماء؟

- لا هذا ولا ذاك، فقط أريد أن نضرب صفحا
عن آية الأحزاب وما تثيره حول قراءتها
من تخصيص تاريخي، وأريد أن أقرأ عليك
بعض آيات سورة النور: "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
أَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاؤِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ
أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ
أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ
النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا
يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ" (النور 31/24). فهل تتصورين
الأوامر الواردة في هذه الآية بتفاصيلها
وتدقيقها غير محيلة على حكم شرعي؟
وهل ستتفلسفين في هذا أيضا؟

- يا صديقي العزيز، إذا كنت تعتبر قراءة
القرآن وتدبره تفلسفا فأنا لا أفعل إذ أتفلسف
إلا ما يأمرنا به الله تعالى إذ يقول: "أَفَلَا
يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالٌهَا" (محمد 24/47). أمّا عن آية سورة
النور التي ذكرت فأنا أعرفها وأحفظها عن

ظهر قلب مثلما أحفظ سواها من أي القرآن
وأنشد العمل بها في سلوكي. وأعرف أنّ
الله تعالى يأمر فيها كلا الجنسين بغضّ
البصر.

- ألا يجيب الأمر المشترك للجنسين بغضّ
البصر عن تساؤلك السابق بشأن إمكان
اشتھاء المرأة للرجل؟ إنّ الله تعالى يأمر
النساء أيضا بغضّ البصر. وأحد أحاديث
الرسول عليه الصلّاة والسّلام يؤكّد ذلك.
فقد روي عن أمّ سلمة "أنّها كانت عند
النبيّ صلى الله عليه وسلم وميمونة إذ
أقبل ابن أمّ مكتوم فدخل عليها فقال عليه
الصلّاة والسّلام: احتجبا منه، فقلت يا
رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا؟ فقال
عليه الصلّاة والسّلام: أفعياوان أنتما
ألستما تبصرانه؟¹²¹¹.

- وما لك لا ترى غضّ البصر إلا في معناه
الحسيّ المباشر محيلا على اجتناب النظّر
إلى موضوع ممكن للشهوة الجنسيّة؟ إنّه لا
مشكل في النظرة في ذاتها ولا حتّى فيما
يمكن أن ينتج عنها من اشتھاء عاديّ،

- فالشهوة ليست محرّمة. المشكل في
تصريف الشهوة بطرق محرّمة.
- أراك لا تؤمنين بزنى العين؟
 - الزنى له معنى واضح محدّد، وهو عند
الفقهاء عبارة عن إيلاج فرج في فرج
مشتهى طبعاً محرّم قطعاً¹³. ومنطلق
تحريمه اختلاط الأنساب وهذا أيضاً
واضح. فلماذا تريدون تجريم الشهوة
الجنسيّة والتعامل معها نفس تعامل
المسيحيين بتصوّرها عيباً؟ ما هو محرّم
هو العلاقة الجنسيّة خارج إطار الزّواج أو
إطار التّسرّي (أي التّمتع بالإماء). وأعني
بالعلاقة الجنسيّة فعل الإيلاج كاملاً كما
يقول الفقهاء. أليس أنّ الرّسول صلّى الله
عليه وسلّم هو من قال لماعز إذ جاء
يعترف له بالزنى: "لعلك قبّلت أو غمزت
أو نظرت"¹⁴؟ وهذا يعني أنّ التّقبيل
واللمس والنّظر أفعال لا تدخل في باب
الزنى.
 - هذه مقدّمات للزنى يا سيّدتي. والرّسول
صلّى الله عليه وسلّم هو من تحدّث عن

زنى العين. ألا تعرفين قوله: "العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه"¹⁵. هل ستنكرين أحاديث الرسول أيضا؟

- واستنادا إلى كتب الحديث ذاتها، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أيضا من صعد النظر وصوبه في المرأة التي وهبت نفسها إليه وتبين أنه ليس له بها حاجة، ثم زوجها لرجل آخر بما يملك ذلك الرجل من القرآن¹⁶. تأكد أنني لا أنفي الأحاديث ولكن أتساءل لماذا لا يكون من معاني زنى العين الإلحاح في النظر إلى شخص ما بصفاءة مما يخرجه ويفلقه؟ والدعوة إلى غض البصر، لم لا يكون من معانيها الدعوة إلى الإعراض عما بين أيدي الناس من ثروات أو مسائل خصوصية؟ لم لا تكون دعوة إلى احترام الحرمات والعورات؟

- قبل أن أوصل النقاش معك، استغفري الله تعالى عما اتهمت به الرسول الأكرم من نظر إلى النساء. إن الخطبة أو غرض الزواج يسمح للرجل بالنظر إلى وجه

المرأة وكفّيتها، وعرض المرأة نفسها على الرسول كان في ذلك الإطار. ألم يقل الله تعالى "لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ... (الأحزاب 33/52). فكيف يمكن أن يعجبه حسنهن إذا لم ينظر إليهن؟ أما فيما يخص تأويلك المجازي العجيب لغضّ البصر فلعلّي إذا اتبعت منطقك أجد أن ضرب الخمر على الجيوب الوارد أمرا صريحا في سورة النور هو أيضا رمز أو مجاز؟ أو لعله يدلّ على معنى آخر سوى المعنى الأصلي؟

- لا داعي لأن تسخر منّي. واطمئنّ فما أسلفته لك حول غضّ البصر متلائم مع ما يذهب إليه بعض المفسّرين. فغضّ البصر مطلقا مستحيل لأنّ معناه أن لا يرى الإنسان ما حوله، ولكنّ الله تعالى يأمر بالغضّ من البصر ويدعو إلى الحياء وإلى عدم التجسّس على النّاس وتتبع عوراتهم وسقطاتهم. والغضّ من البصر عند

القشيري مثلا هو صونُ القلب عن الشواغل
والخواطر الرديّة¹⁷.

- مهما يكن تفسير الغضّ من البصر فلا
يمكن أن تُكْرِي أن في الآية 31 من سورة
النور أمرين خاصين بالنساء وهما ضرب
الخمّر على الجيوب وعدم إبداء الزينة.
- ومن يمكن أن ينكر ذلك يا سيدي؟ الآية كما
قلت أنت نفسك تدعو إلى إسْدالِ الخُمُر على
الجيوب أي إنّها لا تدعو إلى لبس الخمار،
مع ملاحظة أنّ جذر "خ،م،ر" يحيل في
أصل اللّغة على ما يغطّي مطلقا وليس على
ما يغطّي الرّأس فقط. وإذا كنت لا تقتنع
بالدليل اللغويّ فهلا اقتنعت بالدليل الفقهيّ
حيث يتكرّر الحديث الذي يدعو فيه الرّسول
أحد أصحابه إلى تغطية فخذة بقوله: "خمر
فخذك"¹⁸. وأمّا الجيب فهو لغويًا الفتحة أو
الشقّ ويبدو أنّه اصطلاحا في الآية بمعنى
فتحة الثوب أو موضع القطع من الدرع أو
القميص. وأنا أفترض معك أنّ الخمار في
معناه الاصطلاحيّ في الآية يفيد غطاء
للرّأس، فهذا يعني أنّ الآية تعتبر أنّ الخمار

بصفته لباسا هو من تحصيل الحاصل وقتها¹⁹. وبذلك فإنّ الأمر الوارد في الآية ليس أمرا بتغطية للرأس وإنما هو أمر بتغطية الجيوب. وإذا علمت أنّ من عادات النساء في الجاهلية تركّ صدورهنّ عرايا فهمت أنّ الآية تأمر النساء بتغطية صدورهنّ.

- **عدنا مرّة أخرى إلى القراءة التاريخية؟**
- أنا لا أتى بشيء من عندي. ولولا القراءة التاريخية لقلت إنّ الجيب هو ما يكون في جنب الثوب اليوم ممّا اعتبر ابن تيمية أنّه ليس من كلام العرب زمن نزول القرآن. ثمّ إنّ القراءة اللغوية وإن كانت تسمح بأنّ تُتأوّل الآية أمرا بتغطية الفتحات عموما، فإنّ المفسّرين الذين تثق بكلامهم يشيرون إلى أنّ الآية تدعو إلى تغطية الصدور وإلى أنّ الأمر الوارد فيها إنّما هو دعوة إلى مخالفة نساء الجاهلية. وهم يؤكّدون أنّ النساء "كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها نحورهنّ وصدورهنّ وما حواليتها"²⁰، ويؤكّد سيّد قطب أنّ المرأة في الجاهلية

كانت تمرّ بين الرجال مسفحة بصدرها، لا
يواريه شيء²¹.

- لماذا تقممين في كل الأحوال المقام
التاريخي حيث لا داعي إلى إقحامه؟ الآية
واضحة وصريحة تدعو إلى أن تغطّي
المؤمنات الجيب بالخمار.

- وأنا لم أقل عكس ذلك. وهل رأيتني أدعو
إلى تعرية صدور النساء أمام الملا؟ فقط
أريدك أن تنتبه إلى أنّ موضوع الأمر هو
تغطية الصدر لا تغطية الرأس. وحتى إن
اعتبرت الخمار بمعنى غطاء الرأس،
فَعندها ينطبق عليه ما ينطبق على الجلابيب
من أنّه لباس شائع لدى بعض الأقوام،
والأقوام التي لا تعتمد له ليس لها من ذلك
التشريع نصيب كما قال الطاهر ابن
عاشور. إنّ الدّعوة إلى تغطية الرأس
تفترض لغويًا الأمر بأن يضرب النساء
بخمرهنّ على رؤوسهنّ أو على شعورهنّ
(لا على جيوبهنّ) وهذا غير وارد في
القرآن. بل أكثر من ذلك، افترض أنّي أخذ
خمارا بمعنى غطاء الرأس (الذي تريده

أنت) وأضعه على صدري فأنا بذلك أكون
قد طبقتُ الأمر الوارد في الآية تطبيقاً
كاملاً دون تغطية رأسي أو شعري.

- أنت تفترضين أنّ الخمار كان الزيّ الشائع
زمنها وبعضُ الأخبار الموثوق بها تكذب
كلامك وتبيّن مدى إسراع المسلمات آنذاك
إلى طاعة الله تعالى. فقد ورد في أكثر من
أثر أنّه لما نزلت الآية 31 من سورة النور
شقت نساء المسلمين "أكتف مروطهن
فاختمرن به"²². وهذا يفيد أنّهن لم يكن
يغطّين رؤوسهن بالضرورة ويفيد أنّهن
فهمن من الآية دعوة إلى الاختمار أي
تغطية الرأس.

- لقد أسلفت لك أولاً أنّ الاختمار لا يفيد
بالضرورة غطاء الرأس وإنما الغطاء
مطلقاً. وثانياً وهو الأهمّ كم أراك تنتقي ما
يلئم دعواك من الأخبار. فلماذا لم تعرض
إلى ما ورد في كثير من الآثار من أنّ
النساء كنّ يغطّين رؤوسهنّ بالخمر
ويسدلنّها من وراء الظهر إذ نزلت الآية

- تدعوهنّ إلى عدم السّير بين الرّجال
 وصدورهنّ عرايا²³.
- ولكنّ كلّ المفسّرين يُجمعون على أنّ شعر
 المرأة عورة.
- وماذا تقول إذن فيما نقله البخاري في
 صحيحه من أنّه كان الرّجال والنّساء
 يتوضّؤون في زمان رسول الله صلّى الله
 عليه وسلّم جميعاً²⁴.
- أقول إنّ هذا الحديث فهم خطأ. فالمقصود
 به أنّه كان الرّجل وزوجته يتوضّآن من
 حوض واحد، وهذا شأن النّبىّ الأكرم صلّى
 الله عليه وسلّم مع بعض نسائه.
- ولكنّ هذا الحديث يُحمل على العموم لا
 على الخصوص.
- هناك من يذهب إلى أنّ هذا الحديث يحيل
 على ما قبل نزول آية الحجاب. فلا تتصوّر
 "الاختلاط أثناء الوضوء" ممكناً بعد أن
 اتّفق العلماء على أنّه لا يجب أن يظهر من
 المرأة إلّا الوجه والكفّان في أحسن
 الأحوال باعتبارهما من الزّينة الظاهرة.

- ها أنت تأتي إلى الأمر الثاني الوارد في الآية 24 من سورة النور، وهو أمر قائم على الاستثناء: "ولا يبدین زینتهنّ إلا ما ظهر منها". إنّ الآية تنهى النساء عن إبداء زینتهنّ ما عدا الزینة الظاهرة، وبعبارة أخرى فإنّ النصّ یبیح إبداء الزینة الظاهرة. ولا حظّ أنّ القرآن لا یحدّد ما هي هذه الزینة الظاهرة. ولا أظنّ أنّ ذلك من باب الصدفة لأنّ کتاب الله الحکیم لا یمکن أن یقصد إلى التعمیم عفواً، وإنّما أرى أنّ سبب هذا التعمیم تركّ الأمر لاجتهاد المجتهدين وفق ما یدو من اللباس ساترا وشائعا في مجتمع من المجتمعات عبر التاريخ. وهذا ما أشار إليه بعض القدماء أيضا إذ اعتبر القفال أنّ المعنی بالظاهر ما یشهره الإنسان من الزینة في العادة جاریة²⁵.

- ولكنّ علماء الأمة أجمعوا على أنّ زینة المرأة الظاهرة هي زینة خلقیة والظاهر منها یتمثّل في الوجه والكفین، وزینة غیر خلقیة تشمل الثیاب والخلخالین والسّوار، وهذه یمکن أن تُخفی إلا ما یمکن ظهوره

كالتَّوْب عند البعض والكحل والخاتم والسَّوَار عند البعض الآخر²⁶.

- لا تعمّم يا سيّدي. فأنت تعرف أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ المرأة كلّها زينةٌ يجب سترها، فالإمام أحمد يرى أنّ المرأة كلّها عورة حتّى ظفرها، لا يحلّ لها أن يظهر منها شيء حتّى الظفر. وهناك من يقول إنّ القدم يجب إخفاؤها لأنّه ليس من الضّروري كشفها، وهناك من يذهب إلى أنّه يجب ترك العين اليمنى فحسب ظاهرة لكي ترى بها المرأة²⁷. ألم تلاحظ انتشار النقاب واعتباره أمراً إلهياً من قبل البعض؟
- قد يكون النقاب مندوباً لمن هي فائقة الجمال وتخشى أن تفتن الرجال.
- لقد سبق أن أبديتُ اعتراضي على هذا التصوّر التشبيهيّ للمرأة، ولكن إذا سرّث مسارك فمن يا ترى سيحدّد "درجة" جمال امرأةٍ ما وقدرتها على فتنة جميع الرجال مهما اختلفت أذواقهم. هلاً فكّرنا في مؤسسات لسبر الآراء في مجال الجمال

الفاتن، حتّى نميّز من يفرض عليها النقاب
من الأخريات؟

- لنترك الحالات القصوى ولنقف عند الشائع
من اعتبار الوجه والكفين زينة ظاهرة. فلا
تنسّي أنّ الجميع متفقون على أنّ المرأة لا
تطوف بالكعبة إذ تقوم بمناسك الحجّ وهي
متنقبة.

- ما تنساه أنت، ولعلّك لا تعرفه أنّ كلمة
الزّينة كلمة عامّة ليس لها مرجع لغويّ
مخصوص ومحدّد. فقد اختلف في اعتبار
الخُلقة داخلة في الزّينة وذهب الكثيرون إلى
أنّ الزّينة تقتصر على ما يكتسب من كحل
وخضاب وغيره وأكّد هؤلاء صراحة أنّ
الزّينة عبارة عمّا سوى الخُلقة. ولا أدلّ
على ذلك من قوله تعالى: "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا
زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ..." (الأعراف/31).
وقد فسّرت الزّينة هنا بأنّها التّجمل عند
الذهاب إلى المسجد ممّا لا علاقة له
بالخُلقة. وإذا نظرنا في قوله عزّ وجلّ:
"...وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِنَ زِينَتِهِنَّ..." (النور/31)، تأكّد أنّ

الزينة ليست بالضرورة زينة الخلق، فلا يمكن أن تظهر الزينة الخلقية بضرب الأرجل على حدّ علمي.

- مرّة أخرى تسخرين من كلامي. ولكن سأضرب صفحا عن ذلك وسأذكرك فحسب بأن أخذ الزينة عند المسجد قد فسّر عند البعض بأنه يفيد ضرورة لبس الثياب لأنّ الناس قبل الإسلام كانوا يطوفون بالبيت عراة. وهذا ما يجعل الزينة تفيد الثياب أيضا. ولكني لست مثلك ميّالا إلى الجدل للجدال ولذلك أسألك سوّالا مباشرا: هل يعني قولك هذا أنك لا تعتبرين جسد المرأة باعتبارها خلقة من الزينة؟

- كلّ ما هو خلقيّ في الإنسان رجلا كان أو امرأة يمكن أن يكون ذا بعد جماليّ، وقد بيّنتُ لك أنّ الجمال موجود في العين النّاطرة. ويمكن أن تكون العين أيضا زينة وكذلك النّظرة إلخ. المهمّ أنّ "الزينة" عبارة عامّة ولا مرجع مخصوصا لها. ولا أفهم البتّة سرّ تركيزكم على تغطية الشّعْر مثلا في حين أنّ القرآن الكريم لم يورد لفظ

"الشعر" في سياق ما تسمونه بالحجاب.
كما أن بعض المفسرين من القدامى²⁸
وجمال البنا من المحدثين على سبيل المثال
يعتبرون أن الشعر من الزينة الظاهرة التي
يجوز للمرأة إبدائها.

- ها أنت كعادتك تأخذين بأقوال الشواذ
وتتركين إجماع علماء الأمة.

- الشاذ وغير الشاذ مسألة نسبية ولم يقل أحد
إن أغلب الناس هم دوما على صواب. أليس
أن الله تعالى من قال: "وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ
فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ" (الأنعام/116). وتذكر أن أول
من دعا إلى إلغاء الرق كان شاذًا، وتذكر
أن الرسول نفسه كان يُعدّ صوتًا شاذًا
بالنسبة إلى القرشيين في بداية الدعوة.
الحقيقة لا يعلمها إلا الله، أما أنا يا سيدي فلا
أفعل إلا ما أمرني به الله تعالى: أتدبر
كلامه عز وجلّ وأتساءل: لو كانت مسألة
"الحجاب" بمثل هذه الخطورة التي يدّعيها
البعض لا سيّما اليوم، ألم يكن من الممكن

الإشارة مباشرة إلى الوجه والكفين في القرآن باعتبارهما الزينة الظاهرة التي يمكن أن تُكشف؟ وألم يكن من الممكن الإشارة إلى الشعر وسائر الجسد باعتبارهما ما يجب أن يُستر؟ عندما نجد تحريماً أو أمراً في القرآن فإنه يكون واضحاً، ألا ترى تحريم أكل الخنزير مثلاً؟ فلماذا هذه الضبابية والتعميم إذا كانت هذه المسألة بالأهمية التي يضيفها عليها البعض؟

- إننا نحن المسلمين نستمد أحكامنا من القرآن ومن السنة. وكم وضحت السنة أحكاماً قرآنية كثيرة. ألا تعرفين أن القرآن قد أجمل كيفية الصلاة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي بيّنها لنا وقال: "صلّوا كما رأيتموني أصلي"²⁹. ويمكن أن نقول قياساً على ذلك إن القرآن قد ترك زينة المرأة الظاهرة مجملة والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي وضّحها ودقّقها. هل ستتكربين أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم

وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال:
"يا أسماء، إنّ المرأة إذا بلغت المحيض
لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا" وأشار إلى
وجهه وكفيه³⁰.

- إذا لم أنكر أنا أنّ هذا الكلام منسوب إلى
الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فلا تنكر أنت
أنّ في هذا الحديث مشاكل أولها مشكل
جوهريّ وهو أنّه حديث غير متواتر ولكنّه
مرسل بشهادة القدماء أنفسهم، والمرسل من
الأحاديث يدخل ضمن الأحاديث الضّعيفة.
ثمّ إنّ هذا الحديث لا يقدر على حكمه وإثباته
للصّالح وفق مقام معيّن باعتبار أنّ الرّسول
يعمد إلى عبارة "لم يصلح أن يظهر".

- كنت أنتظر منك هذه الملاحظة لذلك أدكرك
بالحديث الثّاني الذي نُقل عنه صلّى الله
عليه وسلّم، وهو حديث لا يمكنك أن
تنكري أنّه ورد في صيغة حكم يحرم ويحلّ
إذ يقول: "لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم
الآخر، أن تُخرج يدها إلا إلى هاهنا،
وقبض على نصف الدّراع". ونجد الحديث
ذاته برواية أخرى: "لا يحلّ لامرأة تؤمن

بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِذَا عَرَّكَ (أَي بَلَّغْتَ) أَنْ
تُظْهِرَ إِلَّا وَجْهَهَا وَيَدِيهَا إِلَى هَا هُنَا"
وَقَبْضَ عَلَى نِصْفِ الذَّرَاعِ³¹.

- هذا الحديث الثَّانِي يَا صَدِيقِي هُوَ أَيْضًا مِنْ
أَحَادِيثِ الْأَحَادِ. وَهُوَ لَا يَخْلُو شَأْنَ الْحَدِيثِ
السَّابِقِ مِنْ مَشْكَلٍ شَكَلِيٍّ مَفَادِهِ أَنَّهُ حَدِيثٌ
قَائِمٌ عَلَى الْإِشَارَةِ وَلَا عَلَى الْعِبَارَةِ. فَإِشَارَةُ
الرَّسُولِ إِلَى الْوَجْهِ قَدْ تَجَعَلَ الشَّعْرَ جِزَاءً
مِنْهُ، وَإِشَارَتُهُ إِلَى مَا يَظْهَرُ مِنَ الذَّرَاعِ
مَخْتَلَفٌ فِيهَا فَأَنْتَ ذَكَرْتَ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ
قَبْضٌ عَلَى نِصْفِ الذَّرَاعِ فِي حِينٍ أَنْ بَعْضَ
الرِّوَايَاتِ الْآخَرَى تَنْقُلُ الْإِشَارَةَ إِلَى الْكَفِّ
وَبَعْضُهَا تَجْعَلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ قَبْضًا
عَلَى ذِرَاعِ نَفْسِهِ، فَتَرُكُ بَيْنَ قَبْضَتِهِ وَبَيْنَ
الْكَفِّ مِثْلَ قَبْضَةٍ أُخْرَى³². فَهَلْ تَرِيدُ مِنِّي
أَنْ أُسْتَنْبِطَ حَكْمًا شَرْعِيًّا مِنْ حَدِيثٍ ضَعِيفٍ
وَقَائِمٍ عَلَى الْإِشَارَةِ الْمَخْتَلَفِ فِي مَرْجِعِهَا
إِضَافَةً إِلَى الْاِخْتِلَافِ أَشَدِّ الْاِخْتِلَافِ فِي
مُضْمُونِهِ؟

- الْأَحَادِيثُ لَمْ تُرَوِّ بِاللَّفْظِ وَإِنَّمَا بِالْمَعْنَى فَلَا
قِيَمَةَ لِهَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ الْعَرْضِيَّةِ الَّتِي

تحتجّين بها. أمّا عن ضعف الحديث فلنن
انقطعت سلسلة من السند أو نقلته سلسلة
واحدة من الرواة فأنا أربأ بصحابة
الرسول وتابعيه الأكرمين أن يكذبوا عليه.
أمّا بالنسبة إليك فلم يبق بعد جدالك في
واضح القرآن وصحيح السنة إلا أن تقولي
لي إن جسد المرأة ليس عورة في صلاتها
وأنته يمكنها أن تصلي مكشوفة الرأس.

- أنا لا أقول شيئاً في هذا. أعرف مثلك أن
الرسول قال: "لا تُقبَل صلاة الحائض إلا
بخمار"³³، وهذا من شأنه أن يبيّن أن
الخمار ليس مفروضاً في سوى الصلاة،
وإلا فما الداعي إلى تخصيص الصلاة؟
ولكن أعرف أيضاً أن كثيرين يعتبرون هذا
الحديث مرسلًا وأعرف خصوصاً أن فقهاء
الأمة وعلماءها مثلما أنهم جوّزوا للأمة
(وألزمها بعضهم) أن تكشف شعرها
وصدرها ونحرها وأن ينظر إليها الناس
المشتركون نظراً لهم إلى البضاعة فإنهم
يجيزون صلاة الأمة مكشوفة الرأس بلباس
عاديّ مثل ذلك الذي يمكنها به الخروج. بل

اعتبروا أنّ عورتها هي -شأن تصوّرهم لعورة الرّجل- بين السّرة والرّكبة، وأنّه يمكنها أن تصلّي ما غطّت فحسب هذه العورة³⁴. فهل تتصوّر أنّ الله تعالى يطلب من عباده أن يعبدوه بطرق مختلفة وأزياء متنوّعة وفق نوعهم وانتمائهم الاجتماعيين؟ الحرّة تلبس لباسا تناجي به الله تعالى لأنّها حرّة، والأمة تلبس لباسا آخر تقابل به الله تعالى لأنّها أمة. إنّي أعتقد أنّ الوقوف عند هذه المسائل الشّكلية الثّانوية هو ما أفقد الإسلام جوهره الرّوحانيّ والأخلاقيّ وهو ما جعلنا أكثر الأمم تخلفا.

- وتريديني أن آخذ بكلامك أنت وأترك إجماع علماء الأمة.

- أنا لا أريدك أن تأخذ بكلامي ولا بكلام سواي. فيكفي أنّك أخذت بالشّائع عبر المجتمعات القديمة من تغطية الرّأس للنساء وحتّى للرّجال، ويكفي أنّك تعدّ ما تسمّيه حجابا ركنا سادسا من أركان الإسلام في حين أنّه ممّا ابتدعه المفسّرون ورسخه الوهابيون.

- ألا تستحين إذ تقولين هذا الكلام؟ فعلا إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء. ماذا تفعلين في قوله تعالى: "وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (النور 60/24). إن في هذا القول تخفيفا عن القواعد من النساء في لباسهن بما يؤكد ضمنا لزوم الحجاب لغير القواعد.
- وما المعني بالقواعد اللواتي لا يرجون نكاحا في رأيك؟
- استنادا إلى التفاسير فإن القواعد من النساء هن أولئك اللواتي ينسن من المحيض ومن الولادة ومن النكاح³⁵؟
- أي إنه نوع من أنواع انتهاء الصلاحية كذاك الذي نجده على الأغذية. كم أنت مضحك أحيانا. حاشا القرآن الحكيم أن يميز النساء إلى صالحات للنكاح وأخريات غير صالحات، والله تعالى قد أنصف خولة ابنة ثعلبة حين ظاهر منها زوجها إذ كبر سنّها

ورق عظمها³⁶. إن من لا يرجون نكاحا هنّ أولئك اللواتي لا يردنه اختيارا مهما يكن سنهن. والله تعالى يضع عنهنّ الحرج في مجتمع رجاليّ منغلق فيسمح لهنّ بأن يلبسن ما يشأن. وما اعتماد عبارة: "ليس عليهنّ جناح" إلا دليل على ذلك. إن الله تعالى يدعو المسلمين إلى ترك النسوة اللاتي لا يتزوّجن وشأنهنّ. ولا تنس أنه فيما يخصّ وضع الثياب فإنّ مفسّريك لم يقرّ لهم قرار في المسألة. فهل الثياب التي توضع هي الجلباب أو الملحفة أو الرداء الخ؟ وهل من المفروض أن يلبس النساء عبر العصور وفي كل المجتمعات نوعا واحدا من اللباس لم ينصّ عليه القرآن؟

- **الناس هم الذين من المفروض أن يسايروا القرآن وليس العكس. وما المشكل لو تزيّت نساء المسلمات بنفس زيّ أسلافهنّ؟ أليس ذلك أحفظ وأستر وأكرم للمرأة؟**

- **كأنتنا نعود في حوارنا إلى نقطة البداية... هي دائرة مفرغة ويبدو أننا لن**

نتفق، والمهم أننا تمكنا من التّحاور وإبداء وجهات نظرنا المختلفة.

1 "ترجي من تشاء منهمن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً خليماً- لا يجل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنتهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً- يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألنهم مما سألوه من متاعاً فاسألوه من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً" (الأحزاب 51-53)

2 "... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً..." (الأحزاب 53/33).

3 "وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى..." (الأحزاب 33/33).

4 الرواية الأولى في صحيح البخاري عن أنس بن مالك يؤكد أنه أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وكان أول ما أنزل في مبيتى الرسول بزینب ابنة جحش أصبح النبي بها عروساً فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي، فأطالوا المكث فقام النبي فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ومشيت حتى جاء عتبة

حجرة عائشة، ثم ظنّ أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه حتّى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا فرجع النبيّ ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب النبيّ بيني وبينه بالسّتر وأنزل الحجاب (صحيح البخاري، دار مطابع الشعب (د-ت)، مج3، ج1، ص30). أمّا الخبر الثّاني فيفيد أنّ عمر بن الخطّاب قال: "يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر فلو أمرتهنّ أن يحتجبن، قال: فنزلت آية الحجاب" (أبو جعفر محمد بن جرير الطّبري: جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت، دار الكتب العلميّة 1992، ج10، ص326). أمّا السّبب الثّالث فهو أنّ "رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابته يد رجل منهم يد عائشة فكره ذلك رسول الله فنزلت آية الحجاب" (جامع البيان، ج10، ص325).

⁵ يتكرّر سبب النزول هذا في جلّ كتب التّفسير على سبيل المثال لا الحصر: جامع البيان، ج10، ص332- أبو الفضل بن الحسن الطّبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار المعرفة 1986، ج8/7، ص580- أبو القاسم جار الله الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التّأويل، بيروت، دار المعرفة (د-ت)، ج3، ص246...

⁶ راجع في نفس هذه السلسلة: "في الإعدام".

⁷ أبو عبد الله القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء الكتاب العربي 1985، ج14، ص244.

⁸ محمّد الطّاهر ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلاميّة، تونس-مصر، دار سحنون-دار السّلام 2006، ص90.

⁹ صحيح مسلم، دار إحياء الكتب العربيّة 1955، ج2 ص1090.

¹⁰ صحيح مسلم ج4، ص2097- نفسه، ج1، ص86-87- صحيح البخاري، مج3، ج7، ص11.

¹¹ لمزيد التّفصيل انظر: أمال قرامي: الاختلاف في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، المدار الإسلامي 2007، صص673-676.

¹² فخر الدّين الرّازي: مفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر 1985، مج12، ج23، ص205.

¹³ السّابق مج12، ج23، ص132.

- ¹⁴ السنن الكبرى للنسائي، بيروت، دار الكتب العلمية 1991، ج4، ص278.
- ¹⁵ جامع البيان، ج11، ص529.
- ¹⁶ صحيح البخاري مج3، ج7، ص8.
- ¹⁷ عبد الكريم القشيري: لطائف الإشارات، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر (دت)، ج5، ص325.
- ¹⁸ مسند أحمد بن حنبل، القاهرة، مؤسسة قرطبة (دت)، ج5 ص290.
- ¹⁹ يسمّى هذا مقتضى لغويا (présupposé). ويُعرّف المقتضى في كُتّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي بأنه الذي يدلّ عليه اللفظ ولا يكون منطوقاً لكن يكون من ضرورة اللفظ. وهذا شأن قولك: "ركب أخي سيارته" فهذا القول يقتضي أنّ للأخ سيارة. وفي هذا المقام يفيد الأمر بضرب الخمر على الجيوب أنّ وجود الخمر من تحصيل الحاصل باعتباره من الشائع في اللباس زمنها.
- ²⁰ الكُتّاف ج3 ص72.
- ²¹ سيّد قطب: في ظلال القرآن، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية (د-ت)، ج5 ص277.
- ²² جلال الدّين السيوطي: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت 1993، ج6، ص181.
- ²³ الكُتّاف، ج3، ص72- مفاتيح الغيب، مج12، ج23، ص207.
- ²⁴ صحيح البخاري، مج1، ج1، ص60.
- ²⁵ مفاتيح الغيب مج12، ج23، ص206.
- ²⁶ السابق، الصفحة نفسها- جامع البيان ج9، ص307.
- ²⁷ الدرّ المنثور، ج6، ص185- مفاتيح الغيب، مج12، ج23، ص207.
- ²⁸ الطّاهر ابن عاشور: تفسير التحرير والتّوير، تونس، الدّار التّونسيّة للنشر 1984، ج18، ص207.
- ²⁹ مفاتيح الغيب مج11 ج22، ص20.
- ³⁰ الدرّ المنثور ج6، ص181- سنن البيهقي الكبرى، مَكّة المكرّمة، مكتبة دار الباز 1994، ج2، ص226.
- ³¹ جامع البيان ج9، ص306.

³² السابق، ص305.
³³ علي بن أحمد ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، القاهرة، دار الحديث 1404 هـ، ج5، ص111.
³⁴ سنن البيهقي ج2، ص227- غريب الحديث لابن سلام، بيروت، دار الكتاب العربي 1396 هـ، ج3، ص345.
³⁵ جامع البيان، ج9، صص348/349- مفاتيح الغيب، مج12، ج24، ص33.
³⁶ راجع سبب نزول قوله تعالى: " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (المجادلة 1/58)."